الباب الثانى

الصراع الدينى

يواكب الصراع بين الاديان والمذاهب مسيرة التاريخ ، فمنذ وجد الانسان على سطح الأرض لم يخل عصر من مســـاجلات ومصادمات ـ تصل فى معظم الاحيان الى الصدام المسلح ـ بين أتباع الاديان والمذاهب المختلفة ولن يشهد الانسان حقبة تختفى فيها المنازعات اختفاء مطلقا .. قد تهدأ فيتوارى الصراع المسلح عن الساحة ، حيث تغمد السيوف ـ وما فى حكمها ـ فى اجربتها . بينما تستمر المساجلات الكلامية بشكل أو بآخـــر . وقد تحتم ظروف العصر الامتناع ـ أو التخفيف من لهجة تحليل ونقد العقيدة المخالفة ـ عن مباشرة هذا النوع من الدفاع عن العقيدة ، ذلك الدفاع ، الذى يستلزم ـ بجانب بيان صحتها ـ الكشف عن ضعف ووهن العقائد المخالفة لها ، ولكن من المستحيل ان تتجـــــاوز المصالحة هذا الحد ، الا فى حالة ضعف العقيدة عند احد الفريقين . ويكون هذا مقدمة لذوبانها فى عقيدة الطرف الآخر مثلما حـــدث للعقائد ، التى اختفت من المجتمعات الشرقية القديمة ، لتحل مكانها عقائد اخرى كالمسيحية والاسلام (١) .

---

(١) قد يمتزج القديم بالحديث ، عندما يضعف عن المقاومة ، ومثال ذلك ما حدث للدين « الفيدى » فقد امتزج بدين الآريين ، الذين غزوا الهند فيما قبل التاريخ . ونتج عنهما ما يعـــرف بـ « الهندوسية » أو « البرهمانية » .

فاذا تصفحنا التاريخ فسنجد سطوره مليئة بالدماء ، التى سالت انهارا فى حلبة الصراع بين قوم يتمسكون بما وجدوا عليه آباءهم من عقائد وعادات ـ رغم ما تخللها من تحريف وانحراف ، وما خالطها من أهواء وشهوات الانسان ـ ورسل أتوا لتصحيح مسار الدين ـ دين الله الواحد ، الذى انزله على جميع الرسل ـ فى المجتمعات البشرية ، وسوف نجد أيضا أن أعنفها وأطولها هو صراع الشرق الاسلامى مع أوروبا المسيحية ، فقد اتخذ صوراشتى، واساليب متعددة ، طبقا للظروف والملابسات ، التى تناسب العصر، وتتفق مع الزمن • والسبب فى عنف هذا الصراع ، وامتداده على طول اربعة عشر قرنا ، يرجع الى :

أولا ـ أصالة الدين الاسلامى فى النفوس :

● بما يدعو اليه من سماحة وأخوة ، ومساواة بين المؤمنين جميعا لا فرق بين غنى وفقير ، ولا بين حاكم ومحكوم •

● وبما يغرسه فى عقول المؤمنين من مبادىء تتفق مع واقع الوجود الانسانى ، فلا رهبانية ، تصيب الغرائز الانسانية بداء الشلل ، فيمنعها عن ممارسة ما خلقت له ، ولا انغماس فى المادية الى حد تدمير الفرد والمجتمع •

فتعاليم الاسلام مطابقة للطبيعة البشرية ، تصفى الروح من الشوائب المميتة ، وتحث على العمل لبناء الحضارة المادية ، كما تحذر من التفريط أو الافراط كى لا يختل التوازن ، لانه اذا افرط المجتمع فى المادية ، وفرط فى النواحى الروحية ، سادت الانانية ، وحب الدنيا ، واستولى الطمع والجشع على النفوس ، فهان كل شىء ـ حتى العقيدة ـ فى سبيل الوصول الى ارضـــــاء النفس

الشهوانية ، واشباع الرغبات الجسمانية ، فتضيع الدولة أمام هجمات الاعداء ، كما حدث للمسلمين فى الاندلس ، عندما شاعت الانانية وحب الذات بين القادة والامراء وحرصوا على الدنيا ، فقتلوا وصلبوا كثيرا من اخوانهم المسلمين ارضاء للنفس الأمارة بالسوء ، واشباعا لشهوة الحكم فضعفوا وصاروا لقمة سائغه للهجمات النصرانية ، التى لم تهدأ حتى قضت على الاسلام نهائيا فى الاندلس ٠

واذا فرط فى الاخذ بأسباب القوى المادية ، خيم الجمود على الدولة فأورثها الوهن والضعف ، فيتصدع بنيانها ، وتتفكك اوصالها ، وهو ما حدث للشرق الاسلامى فى القرون الوسطى ، فقد عاش منطويا على نفسه حقبة أضعفته وأنهكته ، فسقط أمام الزحف الغربى سياسيا وعسكريا ، لانه فقد التفوق الحضارى الذى كان يتمتع به ايام الحروب الصليبية ، سقط لان المعركة كانت بين طرفين غير متكافئين ماديا ، فتقدم البلاد الغربية فى النواحى التكنولوجية ، منحها تفوقا لم يستطع العالم الاسلامى الصمود أمامه ، فتهاوت أقطاره ـ الواحد تلو الآخر ـ أمام جنود الاستعمار الأوروبى ، ولم يأت منتصف القرن التاسع عشر الا والعالم الاسلامى كله خاضع ـ بشكل أو بآخر ـ لسيطرة القوى الاستعمارية الاوروبية ٠

كانت البرتغال هى الدولة الأوروبية الأولى ، التى عبدت طريق الاستعمار الغربى المسيحى فى وسط آسيا وشرقها ، فى الهند وفى اندونيسيا فى سنة ١٥١١ م مستخدمة فى ذلك اسطولها البحرى ، الذى كان يضرب به المثل ، حتى أن ملكها حصل من «البابا اسكندر» على صك رسمى « بأن البرتغال » سيدة بحار العرب والعجم والهند

والحبشه . لكن البرتغال فقدت استقلالها ، باعلان ملك اسبانيا ضمها الى بلاده فى عام ١٥٨٠ م ، الا ان القوى الاستعمارية الاخرى ـ الانجليزيه ، والفرنسية ، والهولنديه ، والالمانيه ، والروسية ـ سارت على الدرب ، فكونت الشركات ، التى مهدت الطريق للغزو العسكرى والفكرى ، بعد السيطرة على الموارد الاقتصادية . بدا النشاط المحموم لهذه الشركات فى القرن السابع عشر (١) ولم يمض قرنين ونصف حتى تمكن الغرب المسيحى من السيطرة التامه على المسلمين فى وسط آسيا وشرقها ، واقام له محاور رئيسية فى افريقيا كما تمكن من بسط نفوذه فى قلب العالم الاسلامى ومركزه الرسمى وهو منطقة الشرق الاوسط . وبذلك طرق العالم الاسلامى من الشرق والغرب وسلط الاعيبه ودسائسه على بقية المجتمعات الاسلامية بين هذين الطرفين حتى وصل نفوذه الى بلاط الباب العالى فى تركيا ، وبلاط الدولة الصفوية فى ايران .. فوهنت المجتمعات الاسلامية ، واتحل عقدها فسقط بعضها اثر بعض تحت نفوذ المستعمر الغربى المسيحى ، ولم تنته الحرب العالمية الاولى الا والعالم الاسلامى كله تحت نفوذ هذا المستعمر .

ادرك الخلفاء فى تركيا خطر التفوق الحضارى الغربى على الخلافة العثمانية فحاولوا الدفاع عنها بالدعوة الى حركة اصلاحيه ، تهيىء الشعب لمقاومة هذا الغزو الثقافى والفكرى ، وتعده اعدادا حديثا للكفاح المسلح ضد الهجوم الغربى لكنهم وقعوا فى اخطاء عجلت بالقضاء على سلطانهم ، وضياع حدى الدول الاسلامية

---

(١) احتلت هولندا جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) فى بداية القرن السابع عشر الميلادى عن طريق شركة الهند الهولاندية التى تأسست عام ١٦٠٢ م .

الكبرى (١) فقد استعان الخلفاء بخبراء عربيين لكى يقيموا لأنفسهم « حصونا » تحميهم من النفوذ ، فانطبق عليهم قول الشاعر :

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

وفى الوقت نفسه حـــاول الخلفاء كسب صداقة كل القـــوى المتصارعه على بسط نفوذها فى انحاء الدولة . فمنحوا كل الامتيازات الممكنة للدول الاجنبية ومن بينها ـ على سبيل المثال ـ السماح لكل المذاهب بحرية ممارسة طقوسها وعبادتها ، كما اعطوا لكل طائفة الحق فى انشاء مدارس خاصة بها فانهارت بذلك الجسور الاخيرة التى حمت المملكة العثمانية من الطوفان الثقافى ، الذى نبت فى الغرب .

وتحت ضغط القوى الغربيه اندفع تأثير الغرب الى ابعد من هذا،اذ حصل لبنان على نظام ادارى جديد ، منح المسيحيين امتيازات جعلت كفتهم راجحة على كفة غيرهم ، كذلك منحت المناطق الواقعة تحت النفوذ الفرنسى حكما ذاتيا ، وتبع ذلك قيام هيئة مالية من الفرنسيين والانجليز بتأسيس « بنك الامبراطورية العثمانية » ... الخ

وهكذا تسلل النفوذ الغربى فى جميع أجهزة الدولة ، واقطارها المختلفة حتى تم له السيطرة عليها كلها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (٢) .

---

(١) وجدت آنذاك دولتان آخريتان هما : الدولة الصـــفوية فى ايران والدولة التيمورية فى الهند .

(٢) راجع كتاب : « الاسلام قوة الغد العالمية » لـ « باول شمتز » ترجمة : الدكتور محمد شامة

واتخذ النفوذ الغربى فى ايران خطا مشابها لمخططه الذى نفذه فى تركيا ، فقد تعرضت الدولة الاسلامية هناك لضغط روسى من الشمال ، يقابله ضغط انجليزى من الجنوب ، فبدا الخطر واضحا من الناحيتين مما جعل الشاه ناصر الدين يحاول وضع خطة اصلاح تمكنه من التصدى لهذا الخطر الماثل أمام عينيه كالشبح المرعب ، فتتح بذلك طريقا للعقل الأوروبى كما كان الحال فى تركيا ، ولم يستطع التخلص منه بعد ذلك ، ثم سارت الامور على النحو الذى سارت عليه فى تركيا ، فواجه الشعب القوى الغربية والانتاج الغربى ، واستمرت المواجهة زمنا طويلا حتى خضعت هذه الدولة الاسلامية للنفوذ الانجليزى والروسى ، اذ أذيع فى طهران فى ٣١ اغسطس ١٩٠٧ نصوص المعاهدة التى عقدت بين روسيا وانجلترا وكان من بين بنودها :

تقسيم ايران الى منطقة نفوذ روسية ، وأخرى انجليزية ٠ وبذلك سقطت تلك المملكة الاسلامية بين براثن الاستعمار ٠

اما فى الهند ، فقد بدأ العد التنازلى لقوة الدولة الاسلامية بعد موت الامبراطور « أورنجزيب » الذى أخضع الهند كلها للحكم الاسلامى ، اذ جاء بعده خلفاء ضعاف ، لم يكن لهم من الحزم والقوة ما يمكنهم من ضبط الأمور فى هذه المملكة المترامية الأطراف ، فأخذت الدولة تتهاوى ، وتتفتت شيئا فشيئا ، واستغل الامراء هذه الفرصة ، فعملوا على استقلال اماراتهم عن السلطة المركزية ٠

ولم تقتصر هذه الظاهرة على الامراء المسلمين فقط ، بل هيئت الظروف لبعض الامراء الهندوس والسيخ ليجمعوا الجيوش ، ويشنوا الحروب على الدولة الاسلامية ، ويقتطعوا لهم من جسمها الكبير ولايات يحكمونها ٠٠ فانحسر نفوذ السلطة المركزية وانكمش

حتى أصبحت هيكلا بدون روح ، وشكلا لا حياة فيـــه ٠٠ ومن خلال هذا التفتت وضياع هيبة السلطة الاسلامية تسلل النفوذ الغربى عن طريق شركة الهند الشرقية الانجليـــزية ، والشركات الهولاندية والفرنسية (١) التى تصارعت فى بادىء الأمر على بسط نفوذها على التركة الاسلامية الواسعة ٠٠ الى ان انفردت شركة الهند الانجليزية بالسيطرة ، بعد ما قضت على الشركات الاخرى المنافسة لها فخلت الساحة لها لتنفيذ خطتها الاســـتعمارية التى استهدفت السيطرة الكاملة ـ اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ـ على الهند كلها ، لكن المسلمين قاوموها مقاومة عنيفة ، بلغت فى

---

(١) بدأت هذه الشركات عملها التجارى فى أرض الهند ، ابان قوة الحكم الاسلامى وازدهاره ٠٠ وكانت تسعى ما أمكنها السعى لتحظى بالمقام الاول فى الحصول على مركز تجارى يتيح لها مكسبا تجاريا فى محصولات الهند التى كانت تصدرها الى أوروبا ، وكان الحكام فى أوج قوتهم ، لا ينظرون الى هؤلاء الا نظرتهم لتاجر يريد أن يكسب مالا من تجارته ، لا أن يكسب أرضا ويبسط نفوذا ٠٠ ولذلك تركوهم يتاجرون ، وربما منحوهم بعض التســـهيلات التجاريه ٠

ولكن هؤلاء كانوا كالمرابى الذى لا ينظر الى فائدته الربويه ، بقدر ما يرمى من بعيد للحصول على الأرض والاستيلاء عليها ٠٠ وكانت هذه الشركات تعمل ، ومن ورائها حكوماتها التى تسعى الى التوسع الاستعمارى ، وواتتها الفرصة حين ضعف الحكم الاسلامى وتفتت وحدة البلاد وانشغالها بحرب بعضها بعضا ، فبدأت فى دور جديد ، وهو دور بسط النفوذ على البلاد وأخذت هذه الشركات تتصارع على اللقمة الدسمة الكبيرة التى أمامها ٠

بعض مراحلها حد الاشتباك المسلح ، فقد قام الامير سراج الدين بالهجوم المسلح على حصونهم فى البنغال وكاد ان يقضى عليهم لكنه فشل بسبب خيانة بعض قواده فقبض عليه وأعدم .

اتخذ الانجليز من هذه الاحداث ذكاة لاحكام قبضتهم على البنغال ثم اتخذوها قاعدة للسيطرة على البلاد كلها .

لم ييأس المسلمون ، فحاول حيدر على القضاء على الانجليز فى الجنوب مستغلا النزاع القائم بينهم وبين الفرنسيين ، ثم سار ابنه على دربه ، فحمل السلاح ، لكنه خر صريعا فى المعركه ، فض الانجليز ان الجو قد خلا لهم فبدأوا ينفذون الخطط للقضاء على البقية الباقية من المقاومة الاسلامية .

وضحت صورة الاستعمار البغيض أمام عيون المسلمين ، وادركوا ابعاد الشر القادم من الغرب للقضاء على مبادئهم وتقاليدهم الدينية ، كى يتمكن من استغلال مواردهم البشريه والمادية ، فاحسوا بالكابوس الاستعمارى يثقل كاهلهم ، وشعروا بالاغلال التى قيدتهم بها جيوش المستعمر ، فامتلات نفوسهم غيظا وأفئدتهم حقدا ، واشتد غليان الدم فى عروقهم ، فدفعهم الى ثورة جامحة فى عام ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٧ م ، لكن توقيتها كان متأخرا ، فقد جاءت بعد أن بسط الانجليز نفوذهم على كل البلاد تقريبا ، ففشلت ، وتحمل المسلمون وحدهم نتائج هذا الفشل أمام العدو المنتصر ، فمثل بهم الانجليز شر تمثيل ، وعملو على اذلالهم ومطاردتهم ، والقضاء على كل حيوية فيهم ، فقبضوا على الامبراطور المسلم « سراج الدين ابو ظفر شاه » الذى كان يهدف الثوار الى ارجاع سلطته ونفوذه اليهم ، فحاكموه ، وحكموا عليه بالاعدام ، ثم خففوا الحكم عليه بنفيه الى « رانجون » عاصمة بورما ، وظل حبيسا هناك حتى لقى ربه ودفن بأرضها .. ثم أعلنت الملكة

فيكتوريا صم الهند لمستعمرات التاج البريطانى ، فتتـــابعت النكبات على المسلمين بتمكين المستعمر . حيث اقام نظاما لحـكم البلاد ، يعتمد على :

- مئات من الخبراء يؤازرهم الجيش .
- وعلى اصطفاء عناصر تدين له بالولاء السياسى والفكرى .
- وعلى استبعاد كل من فى قلبه مثقال ذرة من حمية للوطن او المدين عن مناصب الحكم والوظائف العامة .

ثم اقام نظاما للتعليم لا يوافق طبيعة المسلمين ، فأبعدوهم بذلك عن مجال الثقافة .

ويعتبر هذا التاريخ ـ وهو منتصف القـرن التاسـع عشر الميلادى ـ ذروة ـ النفوذ الاستعمارى فى العالم الاسلامى .

★ ★ ★

ثانيا ـ الوضع الاستراتيجى للعالم الاسلامى :

(أ) فهو يتحكم فى حركة المواصلات العالمية : برية ، وبحرية ، وجوية :

« ادركت القوى الاستعمارية ذلك . فحاولت السيطرة عليـه لتضمن سلامة تجارتها ، وقد عبر « باول شمتز » فى كتابه « الاسلام قوة الغد العالمية » عن أهمية منطقة العالمالاسلامى لأوروبا فقال : « عرفت أهمية العالم الاسلامى على مدى القرون ، ذلك انه كان يمثل جزءا من شبكة خطوط المواصلات فى العالم ، فمن المعروف ان الشرق ـ قبل ظهور الاسلام ـ احتل مركزا هاما ، لان الطرق العالمية الكبرى من الغرب الى الشرق الاقصى ، كانت تمر خلال ارضه ، فكان يسيطر على جزء كبير منها ، وهو الممتد من شمال افريقيا وغرب آسيا الى الشرق الاقصى ، وكان شكل الاوضاع السياسيه فى هذه البقعة يلعب دورا كبيرا فى الاحداث والتجاره العالمية .

« ان اهمية المنطقه الاسلامية ، فى نظام التجاره العالمية ، فى ذلك الوقت كانت واضحه . وحقيقة واقعة ، فحكامها كانوا يستطيعون التحكم فى الاسعار عن طريق رفع رسوم المرور والجمارك ، بل كان فى مقدورهم قطع الطريق كله ، اذا بدا لهم أن ذلك فيه فائدة لهم ، او رغبوا فيه اعتمادا على اى سبب . ومن هنا ظهرت الاطماع فى السيطرة على هذه المنطقة ، وصاحب ذلك تقييم قوى الشرق والغرب ، الذى ظهر واضحا فى النزاع حول المراكز التجارية . فى أرمينية ، وبلاد ما وراء النهرين ، فقد نشط الصدام لأول مره بين الدولة الرومانية القديمة ـ وفيما بعد بين الدولة البيزنطية ـ وبين العنصر لمغولى الزرادشتي ، وقد لعب هذا دورا كبيرا فى تحديد مصير العالم العربى لعدة قرون .

« ان دور الشرق الأدنى كان مفهوما ، واهميته ثابتة ، فهو الوسيط بين الشرق الاقصى ، واوروبا فى التجارة ، يلعب دور البائع والمشترى ومن خلال ذلك يسوق منتجاته الخاصة ، اذ أن مراكز التبادل التجارى تقع منذ قرون عدة على شواطىء البحر الابيض المتوسط فى بلاد الشرق .

« ولم يتغير شىء من هذا بعد ظهـــور الاســـلام فبعد ان قضى الاســـلام على الخـــلاف بين القبـائل العربيـــة ، وغرس الروح الدينية الاسلامية عند لعرب ، استطاع هؤلاء أن يقضوا على المملكتين اللتين كانتا تتسمان تلك المنطقة الآسيوية سقطت المسيحية البيزنطية فى الشمال الغربى والفارسية الزارادشتية ى الشمال الشرقى ، وطبعت تلك البلاد بطابع اسلامى . ثم زحف الفتح الاسلامى الى شمال افريقيا ، وتعداه الى اسبانيا ، وكان علم الاسلام يرفرف على كل تلك المناطق فى عام ٧٥٠م واصـــبح مدح الزند فى المجالات السياسية والتجارية فى الشرق الادنى فى يد الدولة الاسلامية . التى مدت سلطانها على المنطقة جغرافيا وثقافيا .

« لم يتخل الشرق فى عصر صدر الاسلام عن دوره كوسيط بين البلاد الغربية والشرق الاقصى ، فسارعت البلاد الغربية الى ملاءمة نفسها مع مصالح تجارة الشرق ، وبذلك استمرت تجارة بلاد الشاطىء الشرقى للبحر الابيض المتوسط فى الازدهار ٠

« ولكن تغير هذا الوضع عندما قامت الحروب الصليبية ٠٠ التى لم يحركها الاحتياج الاقتصادى للبلاد الغربية ، ولم تحركها الرغبة فى أن توضع تجارة الشرق فى أيدى البلاد الغربية ، بقدر ما حركتها الفكرة الدينية ، التى هيأت لصدام الدول الغربيـــة بالشرق ٠

« أسست أول مستعمرة مسيحية غربية فى بلاد الشرق فى زمن الحروب الصليبية ، ولم يهتم الغازون فى هـــذه المستعمرات بالناحية الدينية ، بل مارسوا مصالح تجارية ٠ كهدف أول ، ولم يكن تأسيس الدول فى تلك المنطقة سوى محاولة جديدة لممارسة توسيع سيطرة الغرب على بلاد الشرق فقد حمل الصليبيون معهم فكرة مدروسة ، مفادها : أن أهمية السيطرة على منطقة غرب آسيا لا يمكن ان يقدر !! اذ هي نقطة اتصال بين الغرب والشرق الاقصى ٠ وثبتت صحة هذه الفكرة لحكام تلك المنطقة منذ قرون ، ومازالت حتى اليوم » ٠

لم تفقد المنطقة هذه المكانة فى عصر الطيران ، بل ازدادت أهميتها جاء ذلك فى تعبير « باول شمتز » عن الوضع الاستراتيجى للعالم الاسلامى بعد اختراع الطائرات ، حيث يقول :

« لم يحتل العالم الاسلامى مكانا أسمى ، ولا أوضح أهمية ، ولا أحسن صنعا مما ناله ، عندما أقيمت شبكة مواصلات جوية من

أوروبا الى الشرق الاقصى ومنها الى وسط وجنوب أفريقيا ، فقد احتلت مصر المكان الاول فى عالم المواصلات الجوية ، والنقـــل بالطائرات ، لانها نقطة ربط فى هذا المجال ولم ينل بعد أى مكان فى العالم مثل هذه الدرجة • فشركات الطيران الانجليزية والفرنسية والالمانية والهولندية والايطالية ، مهدت الطريق جوا فى سنى ما بعد الحرب عبر الشرق الادنى ، وربطت أوروبا بالشرق والجنوب ماره بهذه المنطقة •• واصبحت البلاد الاسلامية ، ركائز الطريق الجوى الى الهند واستراليا والشرق الاقصى وجنوب أفريقيا

«لم ــ ولن ــ تفقد المنطقة أهميتها بالنسبة للتجارة وحركة المواصلات العالمية، وبالتالى كانت ــ وستظل ــ حياتها كلها صراعا مع الطامعين فيها، وسوف تشهد المنطقة صراعا مرا بين الشرق والغرب ، صراعا مثل الصراع الذى دار عبر العصور الماضية ، صراعا لن يهدأ مادام للمنطقة هذا الوضع الاستراتيجى ، ومادام الاسلام حيا فيها » •

(ب) ويملك قوى بشرية ومادية هائلة :

وهى من العناصر الرئيسية فى الصراع الدولى ، اذ ترجح كفة الدولة بقدر ما تملك من هذه القوى ، لو احسنت استخدامها ،

فطن الاستعمار الغربى لهذه القوى ، التى يملكها العـــالم الاسلامى ، فطفق يرسم خططه على أساس عدم تمكين المسلمين من الاستفادة من هذه القوى ، ورغم عكوفه على هذا العمل ، منذ اتصاله بالعالم الاسلامى ، وعدم توانيه لحظـــة عن التفكير فى اضعاف المسلمين من هذا الجانب ، فما فتىء المفكرون فى الغرب يحذرون وينذرون قوادهم وساستهم من عدم توازن القـــوى بين الشرق والغرب ، لو خلى بين المسلمين وبين الاستفادة من هذه القوى التى يملكونها •• يقول : « باول شمتز » :

« **تشير ظاهرة نمو السكان فى اقطار الشرق الاســـلامى الى احتمال وقوع هزة فى ميزان القوى بين الشرق والغرب** ، فقد دلت الدراسات على أن لدى سكان هذه المنطقة خصوبة بشرية ، تفوق نسبتها ما لدى الشعوب الأوروبية ، وسوف تمكن الزيادة فى الانتاج البشرى الشرق على نقل السلطة فى مدة لا تتجاوز بضعة عقود ـ أى عشرات قليلة من السنين ـ وسوف ينجح فى ذلك نجاحا لا نرى من أبعاده اليوم الا النذر اليسير » ٠

وبعد أن يبين مقدار نمو السكان فى مصر ـ كمثل ـ كما تشير بذلك أرقام الاحصاء فى أعوام ١٨٨٧ و ١٨٩٧ و ١٩٠٧ و ١٩٢٧ و ١٩٣٧ يقول :

بينما يعكف الباحثون فى أوروبا على دراسة الظواهر ، التى تسير الى الانخفاض المستمر فى عدد السكان ، ويحـــــاولون تبديد التشاؤم ، الذى سببته نتائج دراسات احصائيات تعداد السكان حيث تبين :

متى تختفى الامة !!

بينما الحال هكذا فى أوروبا ، ينشر السياسى المصرى المهتم بالمشاكل السكانية ، أن تعداد مصر ـ اذا استمر معدل هذه الزيادة فى الاضطراد ـ سيبلغ بعد ٦٠ عاما حوالى ٣٢ مليونا (١) أى أن العدد سيكون ضعف العدد الحالى ـ حسب احصائية ١٩٣٧ م ـ

---

(١) تجاوز التعداد هذا التقدير فى مدى أربعين عاما ، اذ يبلغ عدد السكان الآن طبقا للبيانات الرسمية ٤٠ مليونا ٠

وبعد مائه سنه سيزداد سكان وادى النيل ـ أى مصر ـ الى ٤٩ر٦ مليون نسمة وبعد ٣٠٠ سنة ، حوالى ٥٠٠ مليونا ، وبعد ٤٢٥ سنة ، حوالى ٢ مليارا ـ أى انه سيكون فى مصر أعداد من البشر تساوى ما هو موجود الآن (فى سنة ١٩٣٩) على ظهر الارض ـ وسيصبح فى مصر فى مدى ٩٦٨ سنة ـ أى بعد أقل من الف عام بقليل ـ أمة تعدادها ٩٧٣ مليارا من البشر ، أى أنها سوف تنمو بشريا الى درجة **لا تمكنها فقط من استعمار الكرة الأرضية ، بل من استعمار اعداد من الكواكب السيارة الاخرى ٠**

ومهما كان الامر ، فان الـ ٤٩ مليونا من البشر ، المتوقع وجودها ـ طبقا لهذا الحساب ـ فى مصر عام ٢٠٣٧ م تدعو الى التفكير العميق والتخطيط البعيد المدى ٠

« ان الاضطراد فى زيادة عدد السكان يخلق مشاكل لا حصر لها ، ويبذر بذور القلق فى مسارات السياسة الدولية ٠٠ ولا يقتصر على مصر وحدها بل سيوجد أيضا ـ مع اختلاف بسيط ـ فى الشرق الاسلامى كله ، ويتوقع المراقبون أن تكون هذه الظاهرة احدى نقط النزاع بين الشرق والغرب وهـــذا أمر على جانب كبير من الأهمية ، فمائة عام ـ وهو الزمن الذى قدر لبلوغ تعداد سكان مصر ٤٩ مليونا ـ زمن قصير فى حياة الشعوب وفى سجل التاريخ » ٠

ثم تتبع نسبة الزياده فى تركيا وفلسطين وفى الجزائر وتونس وعقب عليها قائلا :

لو طبقنا ما توصلت اليه دراسة الاحصاءات السكانية فى مصر وتركيا على جميع مناطق العالم الاسلامى التى توجد فيها أنظمة حديثة لتعداد السكان ـ اذ يعتمد فى احصاء السكان فيها

على التقدير ، ويمكن الاعتماد على نتائجه ، لأن غالبا ما يوصل الى حقائق مؤكدة ـ لظهرت لنا أبعاد مؤثرات القوى البشرية ، فهى تسهم الى حد بعيد فى بناء قوة عالمية ٠

لقد دفع الصراع بين القوى الأوروبية ، العظمى ، وبين الشعوب الاسلامية ـ وهو صراع نتج عن اتجاه أوروبا الى التوسع الاستعمارى ـ الى ضرورة القيام بدراسات مقارنة ، فى المجال السـكانى ، للوقوف على اتجاه ميزان القوى ـ من الناحية البشرية ـ بين الطرفين ، وتوصل الباحثون الى نتيجة ، تدعو الى التفكير والتأمل فقد أثبتوا ـ بناء على أرقام توصلوا اليها فى عام ١٩٣١ ـ أن بين كل ٣ر١٣ من البالغين فى أوروبا (١) يوجد شاب واحد تحت الخامسة عشرة ، أما فى مصر وتركيا وايران فقد أثبتت الاحصاءات التى أجريت فى نفس العام ، ان فيها شابا تحت الخامسة عشرة بين كل ١ر٣٨ من البالغين ، وطبقا لهذه النتيجة ، التى تبين اختلاف نسبة الاطفال ، الى البالغين فى أوروبا والعالم الاسلامى ، أمكن للمرء أن يتنبأ ، بأن تفوق الانتاج البشرى فى المنطقة الاسلامية ، سوف يؤثر تأثيرا بالغا على العلاقة بين الشرق والغرب فى عشرات السنين القادمة ٠

« لا يمكن أن يغيب عن المرء ـ اذا قارنا أسباب القوة بين

---

(١) نشرت الصحف فى ١٩٧٨/١٢/٢٠ أن الرئيس الفرنسى « جيسكار ديستان » ناشد الشعب الفرنسى العمل على كثرة النسل، وحذرهم من مغبة الاقلال من الانجاب لان المؤشرات تدل على ان الشعب الفرنسى فى اقلال مضطرد (انظر جريدة الاخبار القاهرية فى ١٩٧٨/١٢/٢١) ٠

الشرق والغرب فى الوقت الحاضر ـ انه سيتضاعف عدد السكان فى العالم الاسلامى فى مدى عشرات قليلة من السنين ، ولا ينبغى ان ينسى ، ان الداعين الى الاخذ بأسباب نمو القوة البشرية ـ عن طريق تشجيع النسل ومحاربة الدعوة الداعية الى تحديده ـ يزيدون يوما بعد يوم ، وان تفوق أوروبا فى التكنولوجيا على الشرق ، ينقص عاما بعد عام ، لان الشعوب الاسلامية اتجهت الى تطوير نفسها وبناء حضارتها الحديثة بالوسائل الهندسية الاوروبية ، وتكرس جهودها اليوم لزيادة انتاجها ، يساعدها فى ذلك وجود المواد الخام بكثرة فى بلادها . فلو رتب المرء ما يملك الشرق من اسباب القوة ، لبدا له ان الخصوبة البشرية ، التى تسبب النمو السريع فى زيادة عدد السكان ، تأخذ مكانا لا يستطيع المرء اغفاله بسهولة ، فكثرة السكان لها آثارها البعيدة ، لانها ـ وان كانت أبعادها لا ترى بالعين المجردة فى الوقت الحاضر ـ ستحدد بطريقة حاسمة المستقبل السياسى للعالم الاسلامى ، وستكون من اهم العوامل التى يرتكز عليها أمنه وسلامته .. (١) .

.. كانت ـ ولا تزال وستظل ـ الخصوبة البشرية فى منطقة العالم الاسلامى سببا فى اصابة الأوروبيين بالقلق والخوف على وضعهم الدولى فانبث دعاتهم فى المجتمعات الاسلامية ، يروجون لتحديد النسل زاعمين ان كثرة الانجـــاب من علامات التخلف الحضارى ، وان كثرة الاولاد تجلب الفقر وتورث التعاسة ، وان الزيادة المطردة فى تعداد الأمة تبتلع الموارد المادية للدولة ، الى درجة العجز والافلاس ، وهم يعلمون تماما ان ثروة العالم الاسلامى لو تركت له ، لزادت عن حاجته ، ولاستطاع بها ـ مـــع امكاناته البشرية الهائلة ـ ان يبنى قوة عالمية .

---

(١) راجع كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » الباب الرابع .

« اثبتت الابحاث ، التى أجريت بعد اكتشاف البترول فى غرب آسيا ان وجوده لا ينحصر بأى حال من الاحوال ، فى حقول جنوب ايران وبلاد ما وراء النهرين ، وأكدت وجود حزام عريض من البترول ، يمتد من الشاطىء الغربى للبحر الاحمر حتى الخليج الفارسى ومنه عبر حقول الزيت فى جنوب ايران ، مجاورا شمال شرق ايران ـ وكذا شماله ـ الى افغانستان · وتشير الاحتمالات انه لم يكتشف حتى الآن من هذا الحزام البترولى سوى جزء صغير جدا ، وعليه فلم تستوعب بعد الثروة البترولية فى العالم الاسلامى ، تلك الثروة التى تمده ، كما تمد دوله بأسباب القوة وبمقومات الاعتماد على النفس ، والتحرر من النفوذ الاجنبى · وليس من السهل ان يدرك المرء فى الوقت الحالى ما يحدثه البترول من تغييرات سياسية واجتماعية فى هذه المنطقة من العالم · »

ولذا فقد تكالبت عليها القوى الاستعمارية ، لتسلب منها هذه الثروة ، وكان هجومها شرسا لان حياتها متوقفة على امكانيـــة السيطرة على منابع البترول ـ وغيره من المواد الخام ، التى يملكها العالم الاسلامى ـ فهو عصب الثورة الصناعية التى تقوم عليهـا النهضة الأوروبية ·

« شهد الشرق الاسلامى هجوما أوروبيا ، اقتحمت عليه القوى الاوروبية دياره ، فخضع لها ، واعطاها امتيازات ،فتحولت المنطقة الاسلامية الى ساحة للبحث الشامل والمنظم للتوصل الى امكانية تطويرها واستخراج المواد الخام من ارضها ، لان النهضة الصناعية فى اوروبا تفتقر اليها لذلك انطلق الأوروبيون يبحثون عن المواد الخام فى أرض الشرق الاسلامى ليغذوا بها مصانع أوروبا الجائعة · اتخذوا هذه المنطقة كلأ مباحا لان المبادىء الأساسية فى الاقتصاد العالمى ، جوزت آنذاك ، أن تعطى البلاد المستعمرة ـ سواء كان استعمارها

كليا أم جزئيا والمنطقة الاسلامية كانت موزعة بين هذين النوعين من الاستعمار ـ ما تملكه من المواد الخام لدول غرب ووسط أوروبا ، التى قطعت شوطا كبيرا فى تصنيعها وتقوم هذه الدول بتصنيع ما يورد لها ثم تغمر به اسواق الكرة الارضية ٠

لم تهدأ مقاومة المسلمين للاستعمار الغربى ، حتى اضطر الى تغيير استراتيجيته ، فاعترف بالاستقلال السـياسى للاقطار الاسلامية ولكنه ظل مسيطرا على المجالات الاقتصادية ٠

يقول بعض المهتمين بشئون الشرق الاسلامى :

« تشير سيطرة شركات البترول الكبرى ، وتسلطها فى العالم الاسلامى على ان الاستقلال السياسى لهذه المنطقة ، لن يكن سوى واجهة خداعة ، اذ تدل الحقائق على ان منطقة الشرق الاسلامى لن تخرج خروجا كليا من دائرة الوصاية الأوروبية ، وان ما يبدو فى المنطقة من ظواهر يعتقد البعض انها مقدمات لقوة نامية ، ليس الا احتمالات لم تخرج الى الواقع بعد ، ويحتمل عدم وجودها ، ويستدلون على ذلك بأن استعمار الدولار يحل ـ بسرعة متزايدة ـ محل استعمار الارض ٠٠ وان الرقابة السياسية استبدلت بالرقابة الاقتصادية ، وبذلك رسخت سيادة الغرب على الشرق ـ وان تغيرت صورتها ـ ولم تضعف ، ولم تهن وسوف تمتد زمنا طويلا » ٠

استعادت الدول الاسلامية سيطرتها على منابع البترول ، ولكن المفكرين الغربيين ما زالوا يطلقون الصيحة تلو الاخرى ، من مغبة انفراد الدول الاسلامية فى التحكم فى مصادر الطـاقة ، ويحفعون ساستهم الى اتخاذ الوسائل ، ضد ما يمكن ان يحدثه هذا الوضع من تهديد للمصالح الغربية ٠

« ان تصفية امتيازات البترول فى غرب آسيا وانتقال تركه الاستعمار الدولارى » الى الدول الاسلامية تديرها ذاتيا ، بحيث لا تحتاج الى مساعدة اجنبية ، فتوجيه انتاجها ، أى انها تتصرف فى هذه التركة دون الخضوع لادارة اجنبيه ·· سوف يحدث هذا فى الوقت الذى يصبح فيه ـ طبقا لما أثبتته الابحاث الدقيقة ـ مخزون البترول الامريكى ضعيفا ويوم يقل الانتاج الغزير لهذا البترول (أى الامريكى) الذى يغزو أسواق العالم اليوم (أى فى عام ١٩٣٩ م) ، سيحتل البترول الاســـلامى (حسب التقديرات المتحفظة جدا) ـ بعد اكتشاف باقى حقول الحزام البترولى فى غرب آسيا ـ مركزا دوليا هاما ، وسيصل انتاجه رقما لم يعرف بعد ، ولا يستطيع الخبراء التكهن به لانه يفوق كل تقدير ·· يجب الا نغفل عن دلاله هذا التغيير وتأثيره اقتصاديا فى مركز العالم الاسلامى على مسرح التبادل التجارى العالمى » ·

لم ينهب الاستعمار من ثروات العالم الاســـلامى البترول فقط ، بل كل انواع المواد الخام من حديد وفحم وقطن ·· و ·· الخ ·

وكانت ـ ولا تزال ـ هذه المواد مصدر اغراء ، دفع القوى الغربية الى الاستعمار السافر للعالم الاسلامى ، ودفع ـ ولا زال يدفع ـ القوى الشيوعية الى التغلغل داخل المجتمعات الاسلاميه ، لفرض سيطرتها المقنعة على مراكز الحكم والتوجيه ·

دفـــع :

ـ الاضطراد المستمر فى زيادة عدد السكان بين المسلمين ،

ـ والثروة الوفيرة . التى يكشف عنها البحث كل يوم فى اراضيهم ،

ـ والمركز الاستراتيجى الفريد فى المواصلات العالمية .

الاستعمار الغربى الى شن الحرب على العالم الاسلامى فى جميع الميادين :

ـ عسكرية ، وسياسية ، واقتصادية ، وفكرية ـ كى يسيطر عليه ويخضعه لرقابته • وشمل الصراع جميع أقطاره ، فقد كان الاستعمار يعتبر انتفاضة المسلمين فى الهند تهدد مركزه فى الشرق الاوسط وكان يرى ان نجاح شعوب الشرق الاوسط فى الحصول على الحرية ، يهز الارض من تحت اقدامه فى الهند والمناطق الاسلامية الاخرى . ولذا فقد شملت خطته اضعاف المسلمين فى كل الاقطار ، واستعمال كل الاسلحة للوصول الى هذا الهدف ، استخدم القوة العسكرية ، وباشر الحصار الاقتصادى وتدخل فى البرامج التعليمية، وشجع اناسا على نشر دعوات فى المجال الدينى ، لتخريب العقيدة الاسلامية ، بغية ابعاد المسلمين عنها ، لانها مصدر قوتهم •

★ ★ ★

ثالثـــا ـ رفض المسلمين السيطرة الاجنبية :

تشترك جميع الشعوب فى غريزة رفض السيطرة الاجنبية ، ومقاومة النفوذ الاجنبى ، ولكن درجات المقاومة ، وحدتها تختلف من شعب لآخر •

فمن الشعوب من يتخذ المقاومه السلبية طريقا للخلاص من قبضة الاجنبى ٠

ومنهـــا من لا تســـتمر مقاومته الايجابية زمنا طويلا ، ثم يخضع وينفذ ما يرسمه له السادة الجدد ٠ بل ويقلدهم فى مختلف نواحى حياتهم الثقافية والاجتماعية ، فتذوب شخصيته فى تقاليد المستعمرين الجدد ٠

ومنها من لا تهدأ مقاومته ، وان طال الزمن ، وامتد الدهر ببقاء المستعمر على أرضه ،واشتد طغيان القـوة الغاصبة لبلده ٠ وان سكنت مقاومته ، فليس الا لتضميد جراحه ، وتجميع قواه ، لبدء جولة جديدة ضد من سلبه حريته وارضه واستحل حرماته وثرواته ، وخطط لتخريب افكاره ، وتوهين عقيدته ٠

وحد هذا النوع من الشعوب فى جميع الحقب التاريخية ، ولكن الشعوب الاسلامية ضربت المثل الاعلى فى رفض الســـيطرة الاجنبية ، اذ لا يوجد فى تاريخ البشرية ، شعب تكالبت عليه القوى العظمى فى العالم ولم تتفق فيما بينها على شىء مثل اتفاقها على القضاء على عقيدة المسلمين ، ومع ذلك أبى المسلمون الاستكانة للهزيمة ، والاعتراف للغالب بأى حق فى بلادهم ، فاستمروا فى كفاحهم قرونا يصارعون العدو مرة ، ويصرعهم اخرى ، وكلما ظن المستعمر ان الساحة قد خلت من المقاومة اندلعت من بين القوى المتهالكة تحت سنابك خيله ، نيران تقض مضجعه وتبدد أحلامه ، وتؤكد له من جديد ، أن الصراع بين المسلمين والمستعمرين ــ وبتعبير ادق بين المسلمين وبين من لا يدين بدينهم من المستعمرين الغاصبين ــ لن ينتهى بهزيمة المسلمين فى معركة لانهم لا يرضخون للهزيمة ابدا والاحداث فى المنطقة الاسلامية تؤكد هذا ، يقول « شمتز » :

« ٠٠ وكان زحف القوات الأوروبية على فارس متمما لعملية اخضاع

المارد الاسلامى وقضا على حريته السياسية ، فتهاوى هذا التمثال العملاق ، وخفت صوته ٠٠ فاعتقدت الدول الغربية انها وضعت يدها على غنيمة خالصة لها ، لا ينازعها احد فى التصرف فيها ، ولا يقف فى طريقها ادنى العقبات ، فقيادة شعوب المنطقة ستكون سهلة ـ لان القوى الوطنية ماتت ، او فى طريقها ـ واستغلالها مباح ، فلن يستطيع الموتى دفاعا ، ولا احتجاجا ٠٠ ثم بدأت الدول الغربية توزع الغنائم ، وفى هذه اللحظة بدأ فى الافق : ان القيود التى كبلت الشرق عشرات السنين قد تمزقت ، نتيجة تفاعل قوى كامنة فى طبيعة هذه الشعوب لا يعرفها الا من درس عقائدها ، واخلاقها ، وتاريخها ، وغاص فى مجتمعاتها بحثا عن هذا الاباء للهزيمة . وهذا الرفض للسيطرة مهما كانت قوة المستعمر وجبروته :

ارتفعت اصوات هذه القوى ، وتساوت مع الدول الغربية ، المدعمة بالسلاح ، وفى دعوتها ارث هذه المملكة ـ اى المملكة العثمانية ـ التى تهاوت فى الحرب العالمية ، وتطاولت هذه القوى فانتزعت لنفسها حق المساواه مع القوى الاستعمارية فى امتلاك هذه التركه ، التى خلفتها الحرب العالمية (الاولى) ٠

لقد خرج من اودية الانقاض التى خلفتها الحرب العالمية فى منطقة العالم الاسلامى ، شبح تمطط ـ كما تقول الاسطوره : مات الطائر وحرق ٠٠ ثم ٠٠ حرج من التراب ، الذى خلفته النار طائر اسرع من الذى مات ـ فى كل مكان ، باذرا بذور الثورة ضد الاطماع الاستعمارية ، داعيا الى الاحتماء بالعقيده ، وتجميع المسلمين حول ايديولوجية اسلامية جديدة ، لمواجهة الخطر القادم من الغرب ، وللقضاء على دعوى الدول الغربية ، بأن لها حقا فى ارث هذه التركه ، التى خلفتها السلطنة الاسلامية فى تركيا ٠

قد تبدو الخلافات على سطح العالم الاسلامى ، اذا ما سيطرت الروح المادية على تصرفات قادته ، وحكامه ، ولكن الشعوب تشعر برباط الوحدة الاسلامية الذى يربط بينها فى المصير ، وان اختلفت البيئات جغرافيا ، وتعدد اللسان لغويا • ومن هذا المنطلق تتجاوب الاصداء فى جميع جنبات الاقطار الاسلامية عندما يتعرض اقليم لبطش الاجنبى ، فيهب الجميع لمساندة اخوانهم والوقوف معهم فتتشابك أيديهم ويقفون جنبا الى جنب ، لتحقيق هدفهم المشترك• ألا وهو التخلص من الاستعمار وبناء قوة اسلامية ـ عالمية ـ يخشى بأسها الجميع •

« أيقظت الوحدة الفكرية للاسلام فى جماهير هذه المنطقـــه الشعور بوحدة المصير فانبثقت حركات متعددة تستهدف عودة القوة العالمية للاسلام ، وقد جمعها حول هذا الهدف الموحد : العقيدة المشتركة . التى جذبتهم ـ وما زالت ـ نحو غاية واحدة ، على الرغم من اختلاف اسلوبهم ، وتباين طرقهم . للوصول الى هذه الغاية ، وقوى انتقارب باشتراكهم فى معاداة الغرب ، وانتشار هذه العداوه للقوى الاستعمارية فى كل مكان فى الشرق ، فاينما وليت وجهك قابلتك مظاهر البغض للدول الأوروبيه • ولمست اثر ذلك فى جميع نواحى الحياة الفردية ، وفى اسلوب الدعاية لدى جميع الهيئات السياسية والاجتماعية •

أضفت الحيوية ـ التى احست بها الجماهير ، نتيجة توحيد الاهداف الرامية الى احياء الاسلام ، كواجهة للدولة الحديثة ـ قوة على التسعور بوحدة المصير •• فقادت شعوب الشرق الاسلامى نضالا ـ انتشر على كل رقعة من بقاعه ، شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ـ ضد الدول الاستعمارية ، كى تحافظ على وجودها •• وساعد هذا النضال المشترك ـ ضد قوى اجنبية ، اجتمعت على

استغلال هذه المنطقة . واستنفاد ثرواتها ـ على ظهور قوى قوية ، كان لها اثر فى التماسك الجماعى ، وكسر حدة الاحتكاك الذى كان يمكن ان يقود الى نزاع شعوبى » .

من النادر ان يظهر كتاب اوروبى عن الشرق ، دون أن يحمل الحديث فيه عن الاسلام اكبر مساحة منه ، ودون ان يحذر مؤلفه رجال السياسة من الاسلام كقوة تهدد أوروبا ، مبينا لهم أنه ـ أى الاسلام ـ الدافع الاول لشعوب المنطقة فى رفضهم السيطرة الأوروبية :

« ان المحرك الاول للفلاحين العربية وثورات الشعب ضد المخطط الاستعمارى فى فلسطين ، هو الدين . ويبلغ الحماس ذروته ، ويصل الغضب الى درجة الغليان فى يوم الجمعة ، حيث يجتمع آلاف المصلين فى المسجد ، يستمعون الى خطبة الجمعة ، التى غالبا ما تكون موجهة الى اثارة العواطف الدينية فيهم فيخرجون غاضبين على اولئك الذين يتعاطفون مع الصهيونية ، ويؤيدونهم فى اقامة وطن لهم على هذه الارض العربية . وقد فهم الزعماء السياسيون هذا الجانب فكرسوا جهودهم لايقاظ الشعور الدينى لدى المسلمين، لخدمة الاهداف السياسية فاشترك علماء الدين فى الحركات الوطنية ـ وكان ذلك احد الاسباب التى جعلت بريطانيا تفكر فى موقفها بالنسبة لانشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين فتحاول اظهار التعاطف مع الجماهير العربية ـ وكانوا قادتها ، فقد تزعم شيخ له مكانة فكرية وروحية فى المجتمع ، الحوادث التى وقعت فى سنة ١٩٣٦ . واستمد الفدائيون من هذه الزعامة قوة ، دفعتهم الى التفانى فى سبيل قضيتهم وعدم المبالاه بما يصيبهم ، لانهم يعتقدون :

ـ « أن الموت فى سبيلها شهادة يثاب عليها بالجنة »

فلم تهن عزيمتهم ، ولم تخر قواهم فى احلك الظروف ، وأدق المواقف ، ولم يفتروا لحظة عن تذكر الله ، والاتصال بعقيدتهم ، عن طريق أداء العبادات والاكثار من السنة وقراءة القرآن ٠

« ٠٠ وتعتبر المنطقة العربية . اهم المناطق التى بدت فيها ظاهرة العلاقة المتبادلة بين القوى الدينية ، والقوى الوطنية ، وقوة تماسكها لان كلتا القوتين ، اللتين تجتمعان فى القومية الاسلامية متكافئتان ، ولان :

« ما يجرى على الارض العربية ، يحدث صدى فى كل ارجاء العالم الاسلامى فهذه المنطقة بالنسبة للمسلمين بمثابة القلب ، تتوقف على ضرباته حياة باقى الجسد ، لذلك يتأثر المسلمون فى جميع انحاء الكرة الارضية ، بالاحداث الجارية على ارض هذه البقعة من وطنهم الاسلامى ، ان مدا أو جزرا ٠ »

« ٠٠ اتحدت القوى القومية مع الاتجاهات الدينية فى العالم الاسلامى ، وكان تأثير الروح الدينية عليها متفاوتا بين قطر وآخر ، قلة وكثرة ، غير أن الاقطار كلها يجمعها طابع واحد ، الا وهو تجميع الاتجاهات الوطنية فى اطار القومية الاسلامية ، وهذا يتطلب مزيدا من التكاليف واستمرار العمل المشترك فى كل مجالات الحياة ، فهو النقاء يبعث الروح الجماعية بين الشعوب الاسلامية ـ من مراكش حتى حدود الهند والصين ـ ويحيى فيها الشعور بوحدة المصير ، الذى يحتم على المسلمين التجمع حـــول رباط شرقى اسلامى ٠

« ويلتقى الشعور بوحدة المصير ـ الذى بعثته القومية الاسلاميه فانتشر بين المسلمين انتشارا واسعا وسريعا ـ طاقته السحرية . وقوته الجبارة من مكة ، من تلك المدينة ، التى أطلق عليها ذات يوم « قلب الاسلام » بينما عرفت القاهرة بأنها : « راسه » ، والقسطنطينية بأنها « يده » .

« هنا فى مكة يجتمع المسلمون من كل ارجاء العالم مره فى السنة اثناء الحج الاكبر ، يلتقون مع بعضهم بعد ان يطرحوا عنهم كل اثر اجنبى ، خارج المنطقة الحرام ، المضروبة حول مكة ، ينسون قومياتهم وأوطانهم ويتذكرون فقط حقيقة واحدة . اخوه فى الله ، تجمعهم عقيدة واحدة وكتاب واحد ، ليس للفوارق الاقليمية مكان بينهم . وهم يد على من سواهم .

« فمكة هى المحل الذى يشعل العاطفة الدينية ، ويبعث فيهم روح تعاليم كتابهم المقدس (القرآن الكريم) وهى مركز الاشعاع الروحى والفكرى ، حوله تحوم أفكارهم ، ثم تنبعث قوة محركة لكل الطاقات فى ارجاء العالم الاسلامى ..

« تحت سماء مكة ـ لمدينة المحرم دخولها على غير المسلم ـ وحول الكعبه ، التى يقصدها المسلمون كل عام يتآمر ذلك العالم المنطوى على نفسه فى هذا المكان ،المتلهف على الوقت ،الذى يستعيد فيه عصره .. يتآمر ذلك العالم ضد اولئك الذين لا يجوز لهم دخول هذه المنطقة . ويمكن للمرء ن يتخيل ان فى هذه المدينة المغلقة امرا يدبر ، وحيلا سياسية تحاك وقرارات ذات أهمية للعالم البعيد تتخذ ، وان المجتمعين خلف الكواليس لا يتناولون فقط بحث المسائل الدينية فى العالم الاسلامى ، بل يناقشون مشاكلهم السياسية .

« اذا لم تكن هذه هى الحقيقة ، فلم تنبعث من ارجاء مكة ، تيارات سياسية ، لها اثرها العميق فى العالم الاسلامى • فلا اقل من ان تلعب هذه المدينة دورا غير مباشر فى توجيه الجـــو السياسى ، اذ الشعائر الدينية ، التى تقام فيها تطبع المسلمين بطابع خاص ، يدور فى جوهره حول التشدد فى عداء البلاد الغربية والوقوف فى وجه الاستعمار الأوروبى » (١) •

★ ★ ★

لم تستطع القوى العسكرية الاستعمارية احراز نصر عسكرى شامل على المقاومة الاسلامية ، اذ لم تتمكن من القضاء التام عليها ، وظل نشاطها فى مناطق العالم الاسلامى مسموعا ومرئيا ، وان فتر احيانا تحت ضغط التفوق العسكرى للمستعمر ، فانها كانت دائما شوكة فى جنب المستعمر ، لا تدعه يهدأ ، أو يغمض عينيه ، مما جعله يعتقد اعتقادا جازما أن القوة العسكرية ليست هى الوسيلة الوحيدة لاخضاع العالم الاسلامى ، فأبدى اهتماما أكثر بنواحى اخرى تؤدى الى اضعاف المصدر الذى يدفع المسلمين الى مقاومة الاجنبى ، ألا وهو الدين ••

وسلك فى الوصول الى هذا الهدف مسالك متعددة :

١ ـ الدراسات الاستشراقية :

كان الغرض من انشاء الدراسات الاستشراقية ، معرفة طبيعة اخلاق وعادات وتقاليد الشعوب المستعمرة ، ليسهل التعامل معها ، وتطويعها للادارة الاجنبية ، ثم استخدمت فى الشرق الاسلامى كوسيلة احماية الاستعمار عن طريق تهيئة نفوس المسلمين لقبول

---

(١) راجع كتاب « الاسلام قوة الغد العالمية » الباب الثالث •

النحو الاوروبى ، والرضا بولايته ، منزع المستشرقون فى دراستهم للاسلام الى اضعاف لقيم لاسلامية ليضعفوا فى المسلم تمسكه بالاسلام ، ويبعثوا فى نفسه الشك فيه كدين ، وليوهموه ان الاسلام لم يعد منهجا سلوكيا ، يتفق وطبيعة الحياة المعاصرة .

(أ) فشرحوا مبادىء الاسلام على نحو يحط من قدرها بين مثيلاتها فى الاديان الاخرى .

اذ يتحدث رينان عن عقيدتى « الجبر والاختيار ، فيقول :

« المسائل الاساسية فى كل دين ، هى التى تربط بالقدر والمغفرة والحساب ، وهى كلمات ثلاث ، مصبوغة بصبغة دينية ، تلقى فى النفس الاعتقاد بوعورة المسلك فى تفهمها ، مع انها من الامور التى ينبغى الوقوف عليها ، والعلم بها ، مهما صعب منالها ، وتعذر مرامها ، ان الدين هو الوسيلة التى تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية ، او بعبارة اخرى ، الواسطة فى وقوف المخلوق بين يدى الخالق .

« اذ تقرر ذلك ، فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع فى نفس المخلوق استعدادا للعمل بمقتضى ارادته السرمدية ، بحيث لا يحيد عما تأمره به هذه الارادة ؟ ام للانسان متى تم خلقه ارادة خاصة يعمل بحسبها ، واختيار مستقل لا يستمد من اختيار اسمى منه ؟ وهل للانسان الذى خلقه الله وسواه ، ارادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق فى ذاته ؟ ام ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضه على زمام الكون ، والمسببة لوجوده فيه ؟

« وفى دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية ، التى لم يومق دين من الاديان ، ولا مذهب فلسفى الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل ، مع ان البحث فيها لاصابة هذا الغرض السامى ، لم يكن بالامر الحديث ، اذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين ، فلم يجدوا لها حلا ، وكان حظهم منها كحظ فلاسفة المتاخرين وعلمائهم ·

« وغاية ما عرف منذ الاعصر السابقة الى الآن ، انه وجد مذهبان تشاطرا فيما بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ·

● فالاول منها يقول بتناهى الربوبية فى العظمة والعلو ، وجعل الانسان فى حضيض الضعف ودرك الوهن ·

● ويذهب الثانى الى رفع مرتبة الانسان وتخويله حـــق القربى من الذات الالهية ، بما فطر عليه من ايمان وارادة ، وبما آتاه من أعمال صالحات وحسنات ·

« والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول ، هى تحريض الانسان على اغفال شئون نفسه ، وبث القنوط فى مؤاده ، وتثبيط همته وايهان عزيمته ·

بينما تسوق نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثانى الى ميدان الجلاد والعمل ، وتلقى به فى غمرات التنافس الحيوى ·

ومن الامثلة على الفريقين :

البوذيون الذين يدينون بدين دنصى عليهم بالتجرد ، اذ من قواعده ان الانسان والكون يفنيان فى الذات الالهية ٠

وقدماء اليونان ، الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الاله بالانسان فى اوصافه المادية وقضى عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يصير فى عداد الالهة بحسناته وخيراته ٠

« وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من انقضائه ديانتان : احداهما ربانية ، والثانية بشرية ، تمثلان دينك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف فى التناقض ٠

اما الأولى (الديانة الربانية) فهى الديانة المسيحيـــــه ، الوارثة بلا واسطة آثار الآريين (١) والمقطوعة الصلات بالمرة مع مذهب السامية وان كانت مشتقة منه ، وغصنا من دوحته ٠٠ ومن خصائص هذه الديانة (المسيحية) ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية ٠

---

(١) أليست البوذية ديانة الآريين ؟
كيف تكون المسيحية مقطوعة الصلة بالسامية ، أليس عيسى عليه السلام ساميا ؟ أليس « بولس » وهو المؤسس لدين الكنيسة الموجود الآن كما يقول علماء الاديان ساميا ؟ أليس « بطرس » ـ وهو رمز الكنيسة الكاثوليكية ورائدها ـ ساميا ؟ ولو دهبت اعـــــد علماء الكنيسة القديمة وروادها والمؤسسين لها ، لوجدت معظمهم لا ينحدرون من الجنس الآرى مما يدل على ان تقسيم المستشرقين على هذا النحو مفتعلا ، ليصل به الى غرضه وهو الطعن على الاسلام حسب تصوره هو ، لا بحسب الواقع ٠

على حين ان الديانة الثانية (البشرية) وهى الاسلام ،المشوبة بتأثير مذهب السامية ، تنحط بالانسان الى أسفل الدرك ، وترفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ٠

« هذان الميلان المختلفان يظهران ظهورا واضحا فى الاعتقاد الاساسى لكلتا الديانتين : وهو أصل الالوهية ٠ اما المسيحى فيذهب فى الاصل الى الثالوث ـ أى ان الاله الاب اوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هى روح القدس ، وعليه فيكون المسيح الها وبشرا ٠٠ هذا الثالوث السرى ، المشتقة اصوله من ضرورة اله بشرى ، بمحو ذنب الجنس البشرى ، ويفديه من الخطيئة ، التى اقترفها ، يرفضه المسلم الذى يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكا شديدا حيث يقول : لا اله الا الله ٠

غير ان ادراك المسيحيين من هذا القبيل هو أخف وأعلى ، واجلب للثقة ، اذ يحملهم على اتيان الأعمال التى تقربهم الى الله ، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، فى حين ان المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى فى الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ولا يتبدل ، ولا صلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغاثة بالله الاحد الذى هو مستودع الآمال ! ولفظ الاسلام معناه : « الاستسلام المطلق لارادة الله » ٠

« ترى الديانتين ، او بعبارة اخرى ، المدنيتين : المسيحية والاسلام احداهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، اذ هما مستقتان من الأصول اليونانية والسامية ،ومنهما استمدتا جانبا من العقائد والمذاهب والآداب ٠ فهما اذن متداخلتان من وجوه عدة ، ولكن مسافة الخلق بينهما

شاسعة فى الحقيقة : من حيث البحث فى القدرة الالهية ، والحرية البشرية » (١)

يبدو التحايل لتشويه الحقائق واضحا فى هذا الكلام ، اذ كيف يتصرر باحث منصف ان الاسلام لا يدعو الى العمل ، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على العمل لتحسين المستوى المادى . وأخرى لصقل روح الانسان حتى لا يتحول الى حيوان لا هدف له الا شهوات البطن المدمرة للفرد والمجتمع ، اذا اطلق العنان لها دون ضوابط وأحكام .

● ان الباعث على هذا التشويه ، ليس الا محاولة زعزعة عقيدة المسلم فى المبادىء الاسلامية لتحقيق جزء من المخطط الكبير الرامى الى قطع الصلة بين المسلم واسلامه ، حتى يسهل اخضاعه وتطويعه للادارة الاجنبية .

(ب) وتناولوا أحكامه فى مجال المال بأسلوب ينم عن قصدهم (اى المستشرقين) ومبلهم الى تشويه تعاليم الاسلام للحد من انتشاره بين شعوب الارض ولتوهين الرباط بين المسلمين وعقيدتهم .

● فهم يدعون فى تفسيرهم لمبدأ الزكاة ، ان الاسلام يرى أن الاموال المادية من اصل شيطانى نجس ، ولذا فلا يحل للمسلم ان يتمتع بها الا اذا طهـــرها ، بارجاعها الى الله ، اى باخـــراج

---

(١) تاريخ الامام ج ٢ ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ ، نقلا عن . الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، للاستاذ الدكتور : محمد البهى ص ٥٣ ـ ٥٦ .

الزكاه (١) منها ، ويردد المسيحيون القائمون على الدراســـات الاسلامية فى الوقت الحاضر هذا المعنى ، ففى العدد رقم ٨٠ للسنة الثامنة والثمانين لصحيفة « The montreal Star » بتاريخ ٥ ابريل سنة ١٩٥٦ ، تحدث **أب دومينيكانى مقيم فى** مصر ـ وكان يقوم بالقاء محاضرات عن علم الكلام الاسلامى بجامعه مونتريال ـ عن النظرة الاسلامية فى الحياة فقال :

« ان المســـلمين يتجنبون الناس ، الذين يشتغلون بالمال ويعتبرونهم اقرب للكلاب منهم للبشر » (٢) .

هذا التصوير لمبدا من المبادىء الاسلامية ، الذى سبق نظام الضمان الاجتماعى ـ الذى تفخر به الامم المتقدمة فى العصر الحديث ـ باكثر من اثنى عشر قرنا ، ينفر شعوب غرب اوروبا وامريكا من الاسلام لان المال يحتل المركز الرئيسى فى حياتهم المعاصرة ، فهو عصب حضارتهم الحديثة ، فاذا ما دعى الى التخلى عنه ـ كما يوحى بذلك كلام هذا الاب الدومينيكانى ـ لن يستجيب ، وبالتالى سوف يصرف النظر عن الاسلام ويقاوم رغبته ، اذا ما دعته نفسه

---

(١) يبدو أنه اخذ هذا المعنى من قوله تعالى « **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** » وهذا فهم سطحى ، اذ ليس المقصود فى الآية تطهير المال لان النفس الجشعة التى تكنز الذهب والفضة ، وتترك اخوانا لها يعانون من الم الفقر والحرمان دون أن تتحرك فتمد لهم يد المساعدة ، هى نفس مريضة ، خبيثة ، نجسة ، ينبغى ان تعالج ، وعلاجها يكون بغرس روح التعاون والرحمة والشفقة بالبائسين فيها ، كى تعطى هذا الفقير ما يعينه على مواجهـــة الحاجات الضرورية فى الحياة ، ويتمثل ذلك فى اعطائه نصاب الزكاة .

(٢) الفكر الاسلامى الحديث ص ٥٧

يوما الى معرفته والبحث عن امكانية اعتناقه دينا ، او اتخاذ مبادئه اسلوبا فى الحياه ٠

وتحاول الدوائر الاستعمارية ترويج هذا الكلام فى المجتمعات الاسلامية كى تبعد المسلمين عن دوائر المال ، لتكون لقمة سائغه لها ومما يؤسف له ، ان هذه الفكرة راجت فى المجتمعات الاسلامية فى القرن الماضى واوائل هذا القرن ، فاستولى على التجارة يهود واوروبيون فكانت لهم الكلمة الاولى والاخيرة فى الاعمال المصرفية فى العالم الاسلامى وتحكموا فى اقتصاد المسلمين ٠

(ج) وصوروا تعاليم الاسلام بانها دعوة الى العنصرية :

فـ « قوامة الرجل على المراة » تخلف حضارى ، يعيد الى الاذهان صورة استعباد المرأه فى القرون الوسطى ، فهو يرفع الرجل الى الذروة ، ويهبط بالمراة الى هاوية الاذلال والضعة ٠

و « عدم قبول المسلم لولاية الاجنبى » هو عدم تعاون مع الشعوب الاخرى ٠

و « الجهاد » اعتداء ، اعطاه الاسلام صفة شرعية ودينية كى يدفع به المسلم لمهاجمة غير المسلم فى وقت أمن فيه على نفسه وعرضه ٠

و « عدم زواج المسلمة بغير المسلم » فكرة عنصرية قائمة على تمييز الشعوب بعضها على بعض ٠

و « فكرة العودة الى القرآن » دعوة الى الرجوع الى الحياة

البدائية ، التى كانت للجماعة الاسلامية ، لانها لم تكن فى نظرهم ـ طبقا لمخطط التشويه لتعاليم الاسلام ـ سوى حياة بدائية ٠ وطبقا لهذا الفهم ينكرون على من ينادى بهذه الفكرة دعوته الى الاصلاح ، اذ الاصلاح فى نظرهم هو التطور واتباع الاساليب الغربية الحديثة ٠

٢ ـ المدارس الاجنبية :

● ادرك المستعمر ان تأثير الدراسات الاستشراقية ـ وان زعزع العقيدة عند بعض المسلمين ، المثقفين ثقافة عربية ـ فى المجتمع الاسلامى جزئى ، فهو محصور فى المجموعة ، التى تعرف اللغات الاجنبية ، ولذا فقد تناولت الخطة الاستعمارية انشاء مدارس فى المجتمعات الاسلامية تعلم ابناء المسلمين الثقافة وتلقنهم الفكر الاجنبى ، وتعدهم اعدادا عاليا لتولى مقاليد الامور فى بلادهم ، وهم بحكم تشربهم الثقافة الاجنبية فى هذه المدارس ، سوف يتبنون منهجه فى التعليم والثقافة ، وفى اسلوب الحكم والسياسة ، وبذلك يكونون خير ممثل للاستعمار ينفذون ما عجز هو عن تنفيذه بطريق مباشر ٠

● اعطيت هذه المدارس من الامكانات ما جعلها تتبوأ المكانة الاولى فى قائمة المعاهد العلمية ، فمدرسوها على درجة عالية من الكفاءة ، وتطبق فى ادارتها احدث النظم التربوية والادارية ويعتنى بمظهرها عناية ، تلفت نظر المواطنين اليها ، فمبانيها على احدث طراز ، وهيئة طلابها تسر الناظرين ، والتزامهم بالسلوك والآداب الاجتماعية بشد انتباه المتعاملين معهم ، وفضلا عن ذلك فقد رسم الاستعمار من الخطة ، ووضع من اللوائح ما يمكن المتخرجين من هذه المدارس من تولى اسمى المناصب ، وارتقاء أعلى الدرجات فى

الدولة ، وبهذا استطاع المستعمر ان يسلم مقاليد الحكم والتوجيه لابناء صنعهم بيده ، فغزاهم بثقافته ، ونماهم فى رحاب افكاره ، فكانت النتيجة ان تنكر معظمهم للتعاليم الدينية ، ونظر اليها والى الداعين لها نظرة استهزاء واستنكار .

● ماذا فعل المسلمون ازاء هذه الظاهرة ؟

● حاربوها بالخطب الرنانة ، ومقالات فى صحف ومجلات لا تصل الى اولياء امور من ارسلوا الى هذه المدارس ، ولو وصلت الى بعضهم ما اثرت فيه لانهم يريدون ان يربوا ابناءهم تربية غربيـــة .

● فاين البديل لهذه المدارس ؟

● لو انشأ المسلمون مثيلا لها فى المستوى الثقافى والتربوى لانصرف معظم الناس عن ارسال ابنائهم الى هذه المدارس الاجنبية، ولكنهم اكتفوا بالاحتجاج الســـلبى ، اللهم الا بعض محاولات ضئيلة ، بذلت فى هذا المجال ، وأقصد بها ما قامت به الجمعية الخيرية الاسلامية فى مصر ، ولكن حتى هذه المحاولات قضى عليها ايضا ، وضمت مدارس الجمعية الخيرية الى الدولة ، فساء حالها وانخفض مستوها وظلت المدارس الاجنبيه تحتل المكان الاول فى مستوى التربية والثقافة .

● وما زال المسلمون يجأرون بالشكوى ، ويصرخون ، ولا يجدون سوى الخطب ومقالات الوعظ ، التى تحذر من ارسال ابناء المسلمين الى المدارس الاجنبية ، اما العلاج العلمى ، فلا يجد آذانا صاغية . واذكر أننى شاركت فى مؤتمر اسلامى عقد فى احدى الدول

العربية ، وكنت عضوا فى لجنة الغزو الفكرى ، فاقترحت على اللجنة ان توصى بانشاء مدارس اسلامية فى مستوى المدارس الاجنبية حتى يجد المسلم الذى يريد لابنه هذا النوع من التعليم ، مكانا فى مؤسسة علمية ، غير خاضعة للفكر الاجنبى ، ووافقت اللجنة على هذا الاقتراح ، ولكن لجنة الصياغة العامة فى المؤتمر أهملته .. لماذا ؟ .. ولاننا لم نبلغ بعد المستوى المطلوب للتخطيط العلمى لمواجهة الفكر الاجنبى ، فنحن لم نتعد بعد مرحلة الخطب الرنانة ، لكسب الشعبية الجماهيرية ، وان كان على حساب فائدة كبرى .. لا تدركها العامة ـ للاسلام والمسلمين .

* * *

٣ ـ ازدواج التعليم :

● انحصرت منـــاهج المؤسسات التعليميـــة فى المجتمعات الاسلامية قبل المواجهة مع قوى الغرب الاستعمارى ـ فى عصر النهضة ـ على النواحى الدينية فقط ، فلم تتناول المشاكل العامة فى المجتمع ، الا من زاوية ترديد ما قاله السابقون ، فجمد الفكر الاسلامى . وتوقف عن التجديد والابتكار (١) فلم يستطع تقديم حلول للمسائل التى تظهر كل يوم على سطح الحياة الانسانية . كذلك عجز عن الخلق والابداع فى مجال العلوم والتكنولوجيا ، وعندما

---

(١) حتى فى المسائل الدينية البحتة ، لم يقم بواجبه كما ينبغى ، بل قصر فى ناحية واهمل فى أخرى ، وقد عبر الشيخ محمد عبده عن قصور التعليم الدينى آنذاك أصدق تعبير فقال :

« اذا استقرينا أحوال المسلمين ، للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد الا سببا واحدا : وهو القصور فى التعليم الدينى ، اما =

بدت اعراض الضعف ـ نتيجة هذا الجمود ـ فى مرحلة المواجهة ظهرت عدة محاولات للدفاع عن الشرق الاسلامى ضد الغزو الفكرى الغربى ، كان بعضها دعوات سياسية ارتكزت على القومية الوطنية

= باهماله جملة كما هو فى بعض البلاد ، واما بالسلوك اليه من غير طرقه القويمة كما فى البعض الآخر ٠

« اما الذين اهمل فيهم التعليم الدينى : فجمهور العامة فى كل ناحية ، لم يبق عندهم من الدين الا اسماء يذكرونها ولا يعتبرونها ، فان كانت لهم عقائد ، فهى بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة ، من نحو : انه لا اختيار للعبد فيما يفعله ، وانما هو مجبور فيما يصدر عنه جبرا محضا ـ فلهذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ، ولا على اجتراح السيئات ، ومثل : ان رحمة الله لا تدع ذنبا حتى تشمله بالغفران قطعا ، لا احتمال معه للعقاب فليفعل الانسان ما يفعل من الموبقات ، وليهمل ما يهمل من المفروضات فلا عقاب عليه ، وما شاكل ذلك مما ادى الى عدم أركان الدين من نفوسهم واستل الحمية من قلوبهم ٠٠ ولا منشأ له الا عدم تعلمهم عقائد دينهم وغفلتهم عما اودع كتاب الله وسنة رسوله ٠

واما الذين اصابوا شيئا من العلم الدينى : فمنهم من كان همهم على احكام الطهارة والنجاسة ، وفرائض الصلاة والصوم ، وظنوا ان الدين منحصر فى ذلك ، ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص فى كتب الفقه فقد اقاموا الدين ، وان هدموا كل ركن سواهما ٠٠ ويشتركون مع الاولين فى تلك العقائد الفاسدة ٠

« ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع فى ابواب المعاملات ، متخذا ذلك آلة للكسب ، وصنعة من الصنائع العادية ، واولئك٠٠

والاخرى تربوية ، اتخذت المنهج الحديث فى التربية اساسا للنهوض بمستوى الامة كى تقوى على صد الاجنبى عن ديارها وعقيدتها وثرواتها ٠

اما القائمون على المعاهد العلمية الدينية ، فقد التزموا موقفا سلبيا فى مواجهة التيارات الفكرية الاجنبية ، فقد رفضوا ادخال اى نوع من العلوم الحديثة فى مناهجهم ، بحجة أن ذلك لا يتفق مع « الاسلام » !! حرموا تدريس الجغرافيا والطبيعة والكيمياء ، والرياضة وغير ذلك من العلوم التى تقوم عليها اسس النهضة

= الاعلب من طلاب الافتاء والقضاء ، ووظائف التدريس وما شاكل ذلك ٠٠ لا ينظرون الى الدين الا من وجهة ما يجلب اليهم المعيشة ٠٠ فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك ، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا ٠

وهؤلاء لا تختص مفاسد اعمالهم بذواتها ، ولكنها تتعدى الى اخلاق العامة وأطوارهم ٠ فهذا القسم أعظم الاقسام خطرا ، واشدها ضررا فى العامة والخاصة ٠٠ وما افراده بقليل ٠

(تاريخ الامام ج ٢ ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ عن الفكر الاسلامى الحديث للاستاذ الدكتور محمد البهى ص ١٤١ ـ ١٤٢) ٠

هيأ هذا الوضع فى مجال التعليم الدينى المناخ لظهور التعليم المدنى ، كما ساعد المستعمر على تمكن خريجى المدارس المدنية ، من السيطرة على مقاليد السلطة وأزمة التوجيه الفكرى ٠ وقدم له فرصة ذهبية ـ انتهزها واستغلها بذكاء نادر ـ لتشويه صورة رجل الدين عند الجماهير ٠

الحديثة وهى التى تمثل احد عنصرى القـــــوة فى مواجهة الغزو الاجنبى (١) فنتج عن هذا ان فقدوا كثيرا من الاصوات المسلمة فى صفوف التيارين الآخرين ـ وهما التيار السياسى القائم على اساس القومية ، والتيار التربوى الذى اتخذ الاسلوب التربوى الحديث اساسا للنهوض بالامة ٠

فحين اشتدت معارضة رجل الدين للاستعمار فى اصـــلاح التعليم ، فرفضوا ادخال النظم الحديثـــــة فى معاهدهم ، وجد المستعمرون انصارا لهم ـ فى صفوف القوميين والمصلحين التربويين ـ فى دعوتهم الى انشاء مدارس حديثه على غرار المدارس الأوروبية واطلقوا عليها التعليم المدنى فى مقابل التعليم الدينى ، وبهذا وجد نظامين للتعليم فى المجتمع الاسلامى ، مدارس دينية واخرى مدنية ، جامعات تقوم على النظام الأوروبى(٢) وأخرى لا يدرس فيها سوى العلوم الدينية ٠ ولم يقتصر الامر عند هذا الحد ، بل استأثر خريجو الجامعات المدنية بكل الوظائف الحساسة فى الدولة وحصلوا على كل الامتيازات ، بينما حرم لآخرون من كل شىء

---

(١) فعليها تقوم القوة المادية فى المواجهة ، أما العنصر الآخر وهو القوة الروحيه ، فالاسلام كفيل بغرسه فى نفوس المسلمين ، لو قامت التربيه الاسلامية فى المجتمع على تخطيط سليم ٠

(٢) لازال هذا النظام المزدوج قائما فى المجتمعات الاسلامية على الرغم من رحيل القوات الاستعمارية عنها ، ومن الغريب انه موجود فى اقطار اسلامية ـ قلدت اقطار اسلامية اخرى ، واضطرت الى هذا التقليد نتيجة لجمود القائمين فيها على شـــئون المؤسسات التعليمية الاسلامية ـ لم تقع يوما ما تحت تأثير مباشر لنفوذ استعمارى ، اى ان القوات الاجنبية لم تطأ أرضها فى عصـــور الاحتلال العسكرى ٠

٠٠ فلم يعينوا الا لتدريس مادتى الدين واللغة العربية ٠٠ وبقروش لا تسمن ولا تغنى من جوع ٠

دعم الاستعمار ـ وساعده فى ذلك مسلمون ، تربوا فى مدارسه ـ التعليم المدنى ، وحارب التعليم الدينى فانكمش ، وعجز عن رسالته كما ينبغى وبقى معزولا عن مواجهـــة التيارات الفكرية الحديثة ٠

ويرجع عدم قيامه بهذا الواجب ايضا الى

جمود القائمين عليه ، وعدم فهمهم للايديولوجيات العالمية ، التى تموج بها المجتمعات الحديثة ٠

والى خضوعهم للحكام ـ وهم متعددو الاهواء فى تأييدهم هذا او ذاك من المذاهب العالمية المختلفة ـ فلم يبينوا رأى الاسلام واضحا فى المذاهب الاقتصادية المعاصرة كالاشتراكية والرأسمالية . بل اخضعوا احكام الاسلام لهوى الحاكم ، فان كان اشتراكيا فالاسلام يدعو الى الاشتراكية ، وان كان معاديا للاشتراكية ، تجاوبت الاصداء فى ارجاء المعاهد العلمية تغنى على الوتر ٠

والى عجزه ـ أى نظام التعليم الدينى ـ عن ابداء الرأى فى حل المشاكل الاجتماعية ـ التى تعانيها الشعوب الاسلامية ـ من وجهة النظر الاسلامية وظل يدور فى دراساته حول مماحكات لفظية ، وشقشقات لغوية جافة ، فخلت الساحة للتفكير الأوروبى ـ أو الاسلامى المتأورب ـ فبسط نفوذه على عقلية الطبقة المثقفة ثقافة « مدنية » ، وهى الطبقة التى تتولى الســـلطة ، وبهذا ضمن الاستعمار تنفيذ النظم الأوروبية فى مجتمع مسلم بواسطة حكام

مسلمين ومن هذه الطبقة ايضا خرج اصحاب الدعوات الهدامة ، لان ثقافتهم العربيه ـ وولاءهم للغرب ـ اضعفت صلتهم بالاسلام، وقطعت الوشائج ، التى تصلهم بعقيدتهم ٠

٤ ـ خلفـــاء الاســـتعمار :

ايقن المستعمر ان موانه سترحل يوما ما عن منطقة العالم الاسلامى . لان اخضاع المسلمين بقوة السلاح مطلب بعيد عن الواقع، فالمجتمع الاسلامى يرفض السيطرة المباشرة رفضا باتا ، ولذا فقد تضمنت خطط المستعمر خلق طبقة من المسلمين تتبنى آراءه ، وتدافع عنها ، وتتولى تنفيذ ما عجز هو عن تنفيذه ٠ وقد تضافرت عدة جهات على تكوين عقلية هذه الطبقة وتغذيتها بالآرا والافكار التى نادت بها فى المجتمع الاسلامى :

فقد اسهم المستشرقون فى غرس بعض المفاهيم الخاصة حول مبادىء العقيدة الاسلامية فى اذهانهم ، فأفهموهم عدم امكانية تطبيق بعض النظم الاسلامية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ومجالات العلوم المختلفة فى الحياة المعاصرة ، حيث التقدم فى التكنولوجيا ، والتعقيدات فى أنظمة الحكم والعلاقات الدولية ، والانشطة الاقتصادية المعقدة ، واثر ذلك كله فى الحياة الاجتماعية بما يتناسب مع متطلبات العصر والبيئة الحضارية ٠

وعلمتهم المدارس الاجنبية ـ التى انشئت فى العالم الاسلامى ـ نظريات فى التاريخ والعلوم الاجتماعية ، تدور كلها حول مفاهيم تدفع الطالب الى اعتناق مبدأ :

« أن العصر لم يعد صالحا لتطبيق تعاليم الاسلام فى مجالى

الحكم والتوجيه ، فلم يبق له سوى العبادات الفردية المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، أى أن مجاله **المسجد فقط** » •

وأغرتهم المناصب الكبرى فى الدولة على تبنى افكار تتلاءم مع اتجاهات المستعمر ، اذ هو يملك الكلمة الاخيرة فى اختيار من يتولون المناصب الكبرى والحساسة فى الدولة ، ولم يفقد هذه الكلمة برحيل قوته عن العالم الاسلامى ، بل لازال محتفظا بها عن طريق تكوين الجمعيات ـ والسيطرة عليها ـ ذات الطابع العالمى ـ مثل الروتارى والماسونية ـ فى العالم الاسلامى ، وجمعيات التقريب بين الاديان والمذاهب ، وهى مؤسسات تضم الشخصيات صاحبة النفوذ فى الدولة •

ويمكن للمرء أن يتبين مدى هذا النفوذ ، عندما يلاحظ أن المتحمسين للاسلام يحال بينهم وبين الوصول الى هذه المناصب ، وان حدث أن وصل احدهم اليها فانما يرجع هذا الى اعتبارات أخرى ، فرضته على من يبدون انهم اصحاب الكلمة فى الدولة ، ثم لا تتركه هذه القوى المعادية للاسلام يتحرك بحرية فى مجـــال ترسيخ المعانى الاسلامية فى مجال عمله ، بل تحاصره ، وتضع أمامه العقبات التى تشل حركته وتظل تلاحقه حتى يقصى ـ أو ينسحب هو يائسا ـ عن المنصب تاركا الساحة لارباب الاستعمار وخلفائه أو لمن يسير فى فلكهم طمعا فى غنم مادى أو أدبى •

وأجبرهم الوضع الدولى للعالم الاسلامى على السير فى فلك احدى القوتين العالميتين ، ذلك ان البلاد الاسلامية تعانى من تخلف فى التكنولوجيا ، وضعف فى أنظمة الحكم ، وتفكك فى الترابط بينها، أضعف قواها فى مواجهة النفوذ الخارجى فخضعت له ، وسواء سمى هذا الخضوع صداقة ، أو تحالف أو تبادل اقتصادى ، فان ما يؤدى

اليه ، هو أن تحصر حركة الدول الاسلامية داخل هذا المعسكر أو ذاك ، مما يجعل كثيرا من هؤلاء الذين يتبنون افكار هؤلاء وأولئك يتبارون فى تبرير اتجاهاتهم السياسية ، وقل أن تجد فى العالم مؤسسات سياسية تلتزم خطا اسلاميا بعيدا عن تاثير القـــوى الاجنبية ، سواء كان مباشرا أو غير مباشر ، لان نفوذ تلك القوى تغلغل فى صفوف جميع المؤسسات فى العالم الاسلامى حتى الدينية ، اذ دخل فى كثير منها ليوجهها ـ من وراء ستار ـ الى طريق ، فيه اضعاف العقيدة وتفكيك الوحدة الاسلامية وقد وضح هذا الدور فى القاديانية ، فقد كان ميرزا غلام أحمد ـ مؤسس هذه الطائفة ـ خاضعا للانجليز خضوعا كليا ! وقام بدور فى المجال الدينى يخدم مصالحهم ، دور لم يستطيعوا القيام به ، اذ لم يكن فى استطاعتهم تبنى دعوة تحريم الجهاد فى وقت كان المسلمون فى اشد الحاجة اليه لدفع غارة الاستعمار عن بلادهم ، ولم يكن وضعهم يسمح بتبنى عقيدة مزج المسيحية بالاسلام ، كما دعا الى ذلك ميرزا غلام احمد ، ولهذا كانوا عونا له وسندا ، ولم لا ! فهو يمهد لهم طريقا عجزوا عن سلوكه ، وسيكون خلبفتهم فى العالم الاسلامى ان هم رحلوا عنه ، خلبفتهم فى توهين العقيدة الاسلامية عند المسلمين، وتمزيق وحدة المسلمين كى تظل كلمة الاستعمار هى المسموعة فى الساحة الدولية .

وهكذا يبدو جليا أثر الصراع الدينى فى ظهور القاديانية فى العالم الاسلامى .